# ذاكرة العرب

مجلة ربع سنوية - العدد الثاني - إبريل ٢٠١٩

# الفهرس


| | |
|---|---|
| تقديم | ٣ |
| سجلماسة... ١٣٠٠ عام على تأسيس أول حاضرة إسلامية بالمغرب الأقصى | ٤ |
| مدينة زبيد اليمنية وتحصيناتها | ١٦ |
| البيوت الدمشقية... كنوز معمارية فنية وأسرار تاريخية | ٣٠ |
| خان أسعد باشا العظم في مدينة دمشق | ٥٠ |
| زينة الرأس للمرأة التونسية... تراث ثقافي وحضاري | ٦٤ |
| سلامات من يافا وحيفا والناصرة والقدس الشريف | ٨٨ |
| السنع وأصوله... الأقوال الشعبية المتداولة في المناسبات الاجتماعية في دول الخليج العربي | ٩٨ |
| تاريخ غزة في نهاية العصر العثماني... قراءة من خلال شواهد القبور | ١١٤ |
| ملحمة السيرة الهلالية | ١٢٨ |
| إطلالة على البن اليمني | ١٣٠ |
| قراءة لوثيقة نادرة تقنن بيع الخيل في عهد الملك عبد العزيز | ١٣٤ |
| هرابات المياه النبطية في سيناء | ١٤٢ |
| **ملف خاص: ما قبل التاريخ في الوطن العربي** | |
| - آثار ما قبل التاريخ في العالم العربي والإرهاصات الأولى للحضارة | ١٥٠ |
| - الفن الصخري الموريتاني | ١٦٢ |
| - الملامح الثقافية لما قبل التاريخ في اليمن | ١٧٤ |
| - تاسيلي... تراث عربي مجهول | ١٧٨ |

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

SPecial Projects
إدارة المشروعات الخاصة

**المشرف العام**
مُصْطَفى الفِقي
مدير مكتبة الإسكندرية

**رئيس التحرير**
خَالِد عَزَب
khaled.azab@bibalex.org

**سكرتير التحرير**
سُوزَان عَابِد
susan.abed@bibalex.org

**المراجعة والتصحيح اللغوي**
فاطِمَة نَبيه
مُحَمَّد حَسَن

**التصميم الجرافيكي والخطوط**
الحَسَن عِصَام
خَالِد مُصْطَفى

**الإسكندرية، إبريل ٢٠١٩**

طُبعت برعاية
OFID
THE OPEC FUND FOR INTERNATIONAL DEVELOPMENT
Uniting against Poverty

# زينة الرأس للمرأة التونسية
# تراث ثقافي وحضاري

بقلم: الدكتورة سامية مروكي

لم يغب عن المرأة منذ غابر العصور، وأينما وُجدت، في الأدغال، في الأرياف، أو في المدن – أنّ زينتها جزء من جمالها الظاهر للعيان، جمال يأسر، يفتح أبواب التقبّل، ويرفع أحيانًا إلى مراتب الجاه والسلطة. بل الجمال سلطة وإكسير الأنوثة. كذلك تدرك المرأة جيدًا أنّ جمالها كلّما تجلّى وراق يثير الغيرة والحسد، فحتّى تحميه وتحمي نفسها تتّخذ من بعض أصناف الزينة ما يعتقد أنّه يقيها من العين الشرّيرة والحاسدة. فتفنّنت في صنع زينتها ممّا تجود به الطبيعة عليها من حجارة كريمة، ومن معادن ثمينة، وممّا اتّفق عليه المجتمع أنّه ذو قيمة مادّية أو لا مادّية. فحذقت المعارف والمهارات لتحوّل بعضها إلى منسوجات من الكتان والحرير والقطن والصوف، كما حذقت صباغتها بألوان بهيّة لا تعرف أسرارها سوى الطبيعة المعطاء. تلك هي المكونات الأساسيّة التي صنعت منها زينتها حتى تنيرها بهاءً، وتجلسها على عرش الجمال.

وهذا العمل مخصص لفن تجميل الرأس من خلال تصفيف الشعر، ولبس الكوفيات والمناديل والعصائب المطعّمة بالحليّ والأحجار، وارتداء الأردية والأغطية التي تعد تراثًا ثقافيًّا غاية في التّنوّع والثّراء؛ ويختلف حسب المكان والمناسبة، وطريقة الوضع، واختيار الألوان والتّطريزات والموادّ المستعملة.

إنّ لباس المرأة منذ حداثة سنّها بمنزلة الوثيقة التاريخية الإثنوغرافيّة، التي تعكس صفات المجتمع الإنساني الذي يتّخذ من ذلك اللباس غطاءً يحمي الجسد، وحلية تزيده حسنًا وبهاء. وتخبر أكسية المرأة التي تنتمي إلى حقب زمنية متعاقبة بما حدث للبيئات والمجتمعات التي تنتسب إليها من تطوّر على مختلف الأصعدة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، وكذلك الذهنيّة، وبانفتاح المجتمعات بعضها على بعض؛ فتكون قد نمت بينها التعارف والتبادل. فأدخلت على لباسها وزينتها من التغيير ما زادها جمالاً، أو ابتكرت بمعارفها ومهاراتها ما رأت فيه زينة وتميزًا، وما ناسب ذوقها ولبّى رغبتها في التباهي، أو حوّل انغلاقها على نفسها فحافظت على ما شاع لديها. وندر أن وُجد مجتمع على وجه البسيطة استمر منغلقًا على نفسه؛ فالإنسان قد جُبل مع الاستقرار على التنقّل والتواصل والتعايش لأغراض الوجود.

وهذه المجموعة من الألبسة التي نقدّمها تبرز نماذج من لباس نسائي كان سائدًا في فترات معيّنة، ويعبّر عن زاد ثقافي شعبي، فيه ما اختصّت به علية القوم وما شاع بين العامة؛ وتمثّل جانبًا من أهم مكونات الهوية التونسية. وهي صورة انتقائية تبسيطية لتراث ثقافي عريق ومتأصّل لم تسلّط الأضواء عليه بشكل واسع حتّى يُتّخذ «مكنزًا» فنيًّا آية في الثراء، يعكس مهارات النساء ومعارفهن في فنون لصيقة بصناعة اللباس، ومرجعًا يستلهم منه الحرفيون والحرفيات الابتكارات المعاصرة.

ومن أهدافنا استعادة ذاكرة لباس المرأة التونسيّة، بل جزء من مكوّناته الفاخرة؛ سعيًا إلى إعادة الاعتبار لتراث فني كان بالأمس واقعًا ملموسًا، وأحيانًا «موضة» تتبرّج بها النسوة في المحافل، غير أنّه أصبح اليوم مادّة متحفيّة مغمورة.

إنّ فنّ تجميل الرأس فنّ متكامل. ويشمل أساليب متعددة، منها الطبيعي والتحسيني، كتصفيف الشعر والعناية به. ويختلف تصفيف الشعر من منطقة إلى أخرى من حيث ضفره ومشطه، وحسب السلوك اليومي أو المناسبي، وكذلك سنّ الفتاة أو المرأة ووضعهما الاجتماعي. ومنها ما يصاحب الوضع الطبيعي للشعر، إما لحجبه وإما لمزيد إبرازه؛ فنجد المناديل والكوفيات بشتى ألوانها، والعصائب المطعّمة بالحلي الذهبية والفضية والمرصعة بالأحجار والمرجان والعنبر، كما نجد الأردية والمنسوجات المطرّزة.

## زينة الشعر

### • تصفيف الشعر

تعد المرأة الشعر من أهم مقومات الجمال. فتوليه العناية الفائقة لجعله جذابًا طويلًا مسترسلًا؛ فتغسله بأجود أنواع الطفل وتخضّبه بالحناء، من حين إلى آخر، وتدلكه بأحسن أنواع الزيوت المعطّرة التي غالبًا ما كانت تستخرجها بنفسها من بعض النباتات الفوّاحة، مثل زيت الجوز وزيت اللوز، ثمّ تمشطه بأنواع من الأمشاط حتى يسهل تصفيفه بشكل يزيد في إشراقة وجهها. وتجنبًا للحسد كانت الفتاة لا تترك شعرها الطويل مكشوفًا، بل كانت تجمعه إلى الوراء وتضفره، أو تلفّه في قطعة من القماش؛ وتعرف هذه الطريقة بالعقصة (العكسة).

العكسة

وعندما يصفّف الشعر لأوّل مرّة بهذه الطريقة، ينظم حفل عائلي تدعى إليه صديقات الفتاة. وترمز هذه العملية إلى أنّ الفتاة قد تجاوزت مرحلة الطفولة واللامبالاة واللعب إلى مرحلة المراهقة. ويظل الشعر ملفوفًا في العقصة (العكسة)، التي يعتقد أنّها تساعد على نموّ الشعر وغزارته ونعومته، ولا ترسله على كتفيها وظهرها إلاّ يوم الزفاف وطوال الاحتفالات بالزواج.

- **الضفيرة**

هي «القاعدة الأساسية للتسريحة التقليدية». وتختلف الضفيرة من منطقة إلى أخرى، وحسب اختلاف المناسبات. ففي تونس المدينة، مثلاً، تجمع المرأة شعرها في ضفيرة واحدة تتدلى على ظهرها مع قصّ القليل منه من جهة الصدغين. ومثل هذه التسريحة شائعة في مدن ساحليّة أخرى، مثل سوسة ونابل والحمامات. أما في منطقة الشمال الغربي، مثل الكاف وباجة وغيرهما، فإنّ المرأة تترك، إضافة إلى الضفيرة، «خجالي» (خصلة من الشعر) ملفوفة حول الأذنين. وفي قابس يتّخذ ضفر شعر العروس طابعًا احتفاليًّا في أثناء ما يُعرف بحفل «العنا»، الذي يقام في الليلة السابقة للدخول، أي يوم ذهاب العروس إلى بيت عريسها. ويتمثّل الحفل التقليدي في أن تقوم الخادمة التي تشرف على مراحل حفل الزفاف بضفر شعر العروس في ضفائر متعدّدة ومتشابكة تعطّرها بالزيوت والعطور الفاخرة، وتزيّن هذه الضفائر بأشرطة من الحرير متعدّدة الألوان. وفي أثناء الحفل تجلس العروس على زربية ورأسها مغطًّى بلحاف من الحرير تشدّه على وجهها بيديها. وتزيّن هذه الضفائر، يوم الدخول، بالتمائم والحلي الفضيّة المرصّعة بالمرجان وبعض الأحجار الأخرى، التي يعتقد أنّها تجنبها العين الحاسدة، وتقيها من أيّ مكروه.

وفي جزيرة جربة، فإنّ هذا الحفل يسمى «مشطان البمبر» وتشرف عليه الزيّانة. يكون فيه كشف شعر العروس أمام الحاضرات ونثره على وجهها وكتفيها وظهرها، ثم مشطه بعناية وتعطيره، ثمّ تزيينه بأنواع عديدة من الحلي سيأتي ذكرها.

أما ضفر الشعر، فيكون في اليوم التالي للزفاف، في حفل عائلي يقام في بيت العريس. يقع حفل «مشطان البمبر» والعروس محاطة بقريباتها وصديقاتها وهنّ ينشدن أغاني تتعلّق بمثل هذه المناسبات، ترقص على وقعها الزيّانة ومساعدتها وهن ماسكات بالسيوف، إذ تتقمّص الزيّانة دور الرجل الذي سيكشف عن البنت فتكون له الولاية، وهو إعداد نفسي للتحوّل المنتظر. وفي الأثناء يوضع طبق على رأس العروس، ليستقبل عطايا الحاضرات من النقد الذي سيكون نصيب الزيّانة. وبعد أن تنتهي الزيّانة من تسريح شعر العروس تنشد:

يا مخبلة الشعر اظهري ظهور القمر... يا مخبلة الخجالي اظهري ظهور الهلال.

إنّ تسريحة الشعر التي تعتمد على عدّة ضفائر واسعة الانتشار في الجنوب التونسي. وإذا كان هذا المجال ممرًّا للقوافل المتجهة جنوب الصحراء، فإنّنا لا نستبعد أن تكون طريقة تسريحة الشعر هذه قد جلبت من بعض البلاد الإفريقية. والملاحظ أنّ النساء الرّحل كنّ يصفّفن شعورهن بالطريقة نفسها، ولكن يضفرنها بشكل مختلف. وتتشكّل التسريحة من ثلاث ضفائر، تتدلى واحدة على الظهر، واثنتان على جانبي الوجه. وتجمع أطراف الضفيرتين الجانبيتين في وسط الرأس بحيث تشكلان دائرة تطوّق أعلى الرأس. ولتزيد النساء من كثافة الضفائر يلجأن إلى ضفر خيوط من الصوف مع شعرهن.

الضفيرة

المجدول

- **الدهون والنباتات المعطّرة**

أمّا الدهون، فأغلبها نباتي، كزيت الياسمين واللوز والقرنفل والخروع؛ وبعضها حيوانيّ، كالعنبر والمسك.

ولتجميل الشعر، وحتّى يكون له بريق، تستعمل الحناء. أما النساء اللاتي يغزو الشيبُ فروة رءوسهن، فإنّهنّ يفضلن صبغ شعورهن بالمردومة لنجاعتها في جعله حالك السواد. والمردومة، مثل الحرقوس الذي له تقريبًا نفس المكونات؛ وهي مزيج من «العفص» و«عود القرنفل» و«الحديدة». ومن مواد التجميل التقليدية أيضًا التي كانت تستعملها التونسية والمكمّلة لزينتها: «الكحل»، و«السواك»، و«الباروق»، و«الشبّ»، و«بياض الوجه».

- **حلي الشعر**

تتزين العروس في جلّ مناطق البلاد التونسيّة بالعديد من الحلي، أهمها ما تجمل به الرأس. فتضيف إلى ضفائرها قطعًا من النقود والحلي الذهبية، وتمزج أطرافها بخيوط الصوف الأحمر والأخضر، أو الخيوط المذهبة. ويعرف هذا النوع من الزينة بالخيوط والنواصي.

**الناصية**: هي حلية شعر العروس، وهي عتيقة ومنتشرة في مدن الساحل والوطن القبلي وجربة. وتتكوّن الناصية من جدائل وشراريب تصنع من خيوط الحرير وخيوط الفضّة، ومن قطع فضية على هيئة أجراس وكرات وأسطوانات. وتضيف نساء الوطن القبلي في حليتهن عناصر تطريزية خاصة بهن.

**المجدول**: يتمثل في خيوط مضفورة فيما بينها، ذات ألوان مختلفة يغلب عليها الأحمر والأخضر، وتضفر مع الشعر لتزيينه. وهو شائع لدى نساء شنني (تطاوين).

**الشراريط**: هي خيوط من الصوف مضفورة فيما بينها، وتنتهي بكويرات. وهي حلية للشعر منتشرة في قابس.

**القطايـة**: هي حلية للشعر متكوّنة من خيوط مضفورة فيما بينها، وتلبس في الحمامات.

القطايـة

الشيشباقو

تيــور

**الشيشباقو**: يرى بعضهم أنّه قد يكون من أصول تركية. وهو حلية لشعر النساء في جزيرة جربة، مثلثة الشكل من الفضّة المزخرفة ببعض قطع الحجارة الكريمة، والمطلية بالمينا[1]، تتدلّى من قاعدتها سلاسل فضيّة تنتهي بقطع نقديّة، وقطع في شكل الهلال أو الخمسة. ويتّخذ الشيشباقو شكلًا زخرفيًّا تحوكه النساجات التونسيات على البخنوق، مثل بخنوق مطماطة. وأصبحت هذه الحلية نادرة الاستعمال.

**تيــور**: حلية للشعر والصدغين تلبس في غمراسن. وتنتمي التيور والدلايل إلى نفس الفصيلة من الحلي. والتيور والدلايل تلبس أزواجًا، فتشد الواحدة إلى الأخرى بسير من الجلد يوضع على الرأس. وبصفة عامّة تشدّ حلي الصدغين إلى أغطية الرأس بواسطة متقوسات، أو توضع مباشرة على الرأس بواسطة الشريط الذي يصل إحداهما بالأخرى. ويتألف كلّ سير مكون للتيور من خمس نجمات فضية ذات ست ذؤابات.

ولا تعتبر التونسيات الحلي أدوات للزينة فحسب، بل يسندن إليها، لرمزية أشكالها، وظيفة الوقاية والحماية. وهذا ما قد يفسر أنّ السمكة، والخمسة، والهلال، والمثلث، والمعين الذي يتوسّطه شكل دائري، والقطع الدائريّة، من العناصر الأساسيّة والثابتة المكونة لبنية الحليّ.

ومما لا شكّ فيه أنّ عادة تغطية الرأس وحجب الشعر عن الأنظار، قد حثّت الصانعات على ابتكار وتطوير أنواع من الأغطية والعصائب والكوفيات؛ وأفخمها تلك التي تُخصّص ليوم الزفاف.

(١) المينا: مادة تتكون من الرمل، والزنك (أكسيد الرصاص الأحمر)، والبوتاس، وكربونات الصوديوم. قابلة للتحول تحت درجة حرارة مرتفعة، بحيث تأخذ الألوان المختلفة الشفافة بالأكسدة المعدنية، وتستعمل لتغطية المعدن وزخرفته بالألوان اللماعة.

## مناديل الرأس

إن الطريقة التقليدية في ترتيب الشعر اليومي في البلاد التونسية تتطلب تغطيته بمنديل. وتختلف المناديل باختلاف المناطق ومكانة النساء الاجتماعية والعمرية.

- **المناديل العادية**

إن اختيار المنديل وفقًا لشكله، ونوعية قماشه، ولونه، وزخرفته وطريقة عقده – يمثل مجالًا واسعًا لخيال المرأة، ويعبر عن نوعية ذوقها واختياراتها. ففي كبرى المدن الساحليّة ترتدي المرأة منديلًا من الحرير ذي لون واحد، ويسمى «صادا». لكن غالبًا ما يكون المنديل مخطّطًا بلون أو ألوان غير لون الأرضيّة، وأحيانًا بخيوط رقيقة فضية أو ذهبية. وأمّا الشائع، فهو أنّ المنديل (محرمة، جمع المحارم) يكون من القطن أحمر اللون، ويعرف بـ«محرمة حمراء».

كذلك يطوى المنديل في شكل مثلث يتدلى أحد أطرافه على الظهر، ويمرر الطرفان الآخران وراء الرقبة، ثمّ يعقدان في مقدمة الرأس بعقدة تشبه جناحي عصفور، لذلك سميت هذه الطريقة بـ«التقريطة المعصفرة».

ولتثبيت المنديل فلا يسقط، يمرر طرفاه ويعقدان وراء رأسها. وهذه الطريقة غالبًا ما تلجأ إليها المرأة في أثناء القيام بشئونها المنزلية. وفي بعض المناطق يتقاطع طرفا المنديل تحت الذقن، ثم يُدخلان تحت المنديل من جهة الخدين، ويعقدان إلى الوراء. وبينما سمّيت التقريطة (المنديل) المصنوعة من القطن والشائعة في صفاقس «مصرية»، فإنّ المرأة في قرية رفراف ذات الأصول الأندلسيّة تستعمل منديلًا من القطن الأزرق مزخرفًا بأشكال دائرية مطبوعة، ويسمى «هندية».

وفي الأوساط الريفية تستعمل المرأة في أغلب الأحيان أكثر من منديل. يكون الأوّل مطويًّا بشكل مثلث، ويوضع على الرأس، في حين يطوى الثاني مرّات في شكل عصابة توضع على الجبين، ثم تعقد خلف الرأس لتثبيت المنديل الأوّل الذي تتدلى أطرافه على الكتفين، وعلى الظهر.

مناديل الرأس العادية

مناديل الرأس العادية

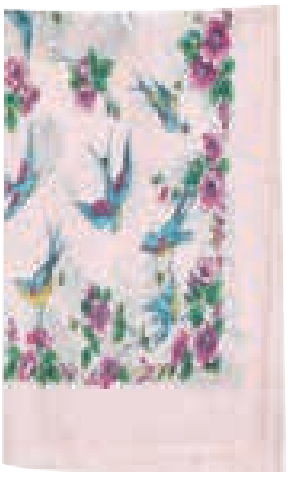

مناديل الرأس العادية

- **مناديل المناسبات**

بعض مناديل المناسبات ينسجها نساجون تونسيّون مهرة من مادة الحرير، بمختلف ألوانه الجميلة الجذابة وموشّى بخيوط الفضّة، والبعض الآخر مستورد من الشرق العربي، مثل المنديل الحريري.

**الطيارية**: الذي تتخذه المرأة غطاءً للرأس في صفاقس والمحرس وجزر قرقنة. وهو، كما جاء في معجم الكلمات والتقاليد الشعبيّة بصفاقس: «منديل حريري مزركش، يطغى عليه اللونان الأبيض والبني، مصدره جزر سيلان. وكانت صفاقس تستورده أولًا من البلاد الشرقية حيث يمرّ بالعراق ومصر وبلاد الشام. تضعه المرأة الصفاقسية تحت الكوفية. كذلك تستعمله نساء مدينة المحرس وقرى جزر قرقنة. وفي العهد الاستعماري، أصبحت صفاقس تستورده من سويسرا التي تصنعه من الكتان، ثم أصبح يصنع في تونس في معامل بئر القصعة. ولبس الطيارية له عند المرأة الصفاقسية ترتيب خاص، فهي تضعه تحت الكوفية وترفع جوانبه على ذيولها».

الطيارية

أما الطيارية التي تصنع في تونس، فهي من القطن، وألوانها داكنة ويطغى عليها الأسود والأحمر الغامق، وتسمى «طيرية بكير». وتلبسها نساء الطبقات الوسطى في المناسبات، والحضريات كمنديل يومي. وتصنع «طيرية بكير» اليوم في معامل النسيج في الساحل، ثم انتشر استعمالها في كامل البلاد أمام تقلّص استعمال المناديل الحريرية التي كانت تنسج في أسواق العاصمة.

**الذراية**: كان حرايرية تونس الحاضرة يصنعون «الذراية»، وهي من أنواع لباس الرأس عند النساء، تلبس فوق الكوفيّة؛ إذ تلفّ الرأس لفتين من تحت الذقن، فتغطي الأذنين، ويتدلى طرفاها من فوق الكتف على الظهر حتى الخاصرة.

**المحرمة المرشوشة**: وهي أفخم منديل لزينة الرأس في الساحل. وتلبسه عروس المكنين فوق الكوفيّة، مطويًّا في شكل مثلث ومثبتًا على الرأس بواسطة العصابة «فرق»، المطعمة بالجوهر وبقطع من الفضّة المذهّبة. وتضع فوقه منديلًا آخر من الحرير مستطيل الشكل يسمى «بونتة»، ألوانه متناسقة مع المنديل الأول، ومطرز بخيوط من الفضّة المذهبة.

وهذه المناديل مربعة الشكل عامة والمستطيلة أحيانًا من خصائص لباس مدن الساحل. وتتكوّن غالبًا من قطعتي حرير من لونين متناسقين، تجمعان بتطريز دقيق بخيوط من الفضّة المذهبة «تل». ويملأ التطريز مساحة المنديل على الوجهين، إذ يمكن للمرأة استعماله حسب اللون الذي يتماشى مع بقية لباسها. والألوان المستعملة عادة هي البنفسجي مع الأخضر، والبنفسجي مع الأحمر، والأخضر مع البرتقالي، والأحمر مع الأزرق. ومن هذا

المحرمة المرشوشة

النمط منديل المهديّة برتقالي اللون المطرز بالتل، والمعروف عندهم بـ«الخيّاطي»، ويعرف في سوسة بـ«محرمة التل».

أما الزخارف المطرزة، فأغلبها أشكال نباتيّة وهندسيّة مصحوبة بمجسدين لليد والسمكة، اللذين يحملان، كما ذكرنا، بعدًا وقائيًّا.

**الشـــال**: تضع المرأة الحضرية في الشتاء قطعة كبيرة من الحرير أو المُخمل، مربعة الشكل، ومحفوفة بأهداب طويلة من الحرير. يصنع الشال من الحرير المزخرف بأشكال زهرية مخمليّة وفضية على أرضية من الساتان أو الموسلين. وهذا الغطاء يكاد ينقرض اليوم، وقد كان يجلب من البلدان الأوروبية.

ولا تقتصر المرأة التونسية في تجميل رأسها على العناية بالشعر ولبس المناديل فقط. بل ابتكرت طرقًا أخرى، وابتدعت لوازم متعدّدة، تفننت في حياكتها وتطريزها وتطعيمها بشتى أنواع الأحجار والمرجان وقطع الفضّة المذهّبة واللؤلؤ. ومن بين هذه اللوازم مجموعة متميزة من عصائب الرأس.

## العصائب

إن عصابة الرأس المستعملة لتغطية الرأس وتزيينه هي قطعة هامة جدًّا من اللباس في البلاد العربية. فقد كانت زينة الرأس علامة لمعرفة مرتديتها، وأداة تصنيف لمكانتها الاجتماعية. فتمثل العصابة في آن واحد أداة لتثبيت المنديل على الرأس، وعنصرًا من عناصر تجميله. ولها، حسب المعتقدات الشعبية، وظيفة وقائية وعلاجية، خاصّة أوجاع الرأس، عندما توضع فوق جبين المرأة وتضغط عليه.

وقد عرفت بلدان شمال إفريقيا العصابة كغطاء رأس نسائي متوارث منذ زمن بعيد. وتوطدت أكثر مع الفتوحات الإسلامية والهجرات العربية. ولقيمة العصابة الجمالية كانت النساء يتباهين بها مع ملابسهن وأرديتهن الخلابة.

- **العصائب اليومية**

**عصابة منديل**: هذه العصابة مستعملة إلى يومنا هذا في الأوساط الريفية والقرى. وهي منديل من الحرير أو القطن أحمر اللون أو أسود، تطوى عدّة طيات حتى تصبح شريطًا طويلًا يوضع على الجبين، وتعقد أطرافه، إمّا إلى الوراء وإما ترجع إلى الأمام، وتعقد وسط الجبين.

**عصابة عمامة**: هي في شكل شريط طويل من الصوف عادة ما تنسجه النساء. ويستعمل هذا النوع من العمائم في غربي البلاد التونسيّة وفي أقصى الجنوب. وتكون العمامة سوداء اللون أو مزخرفة أحيانًا ببقع حمراء، وتلبسها المرأة إمّا فوق لحاف من الحرير أو منديل من القطن يلفّ الرأس، وإما تحت غطاء من الصوف الليّن المزخرف بأشكال مطرّزة.

وفي القرى البربريّة بالجنوب الشرقي، الدويرات وشنني وقرماسة، تلبس النساء المتزوّجات عصابة متميّزة من حيث تقنية نسجها؛ فتكون خيوط الصوف الأسود والأحمر متداخلة كأنّها مضفورة. وهذا النمط مماثل للعصائب المستعملة في ورزازات وبني بو أليلو وقلاوة. وتلبس نساء نفزاوة ودوز عصابة مشابهة، ولكنّها أضخم، من الصوف الأسود المضفور. وتمتد هذه العصابة حتى منطقة مطماطة حيث تكون منمّقة بدوائر حمراء مصبوغة (مصرّرة).

عصابة منديل

عصابة منديل

- **عصائب الزينة**

**عصابة الحلية**: هي عصابة تستعمل في المناسبات، كحفلات الزفاف وحفلات الجلوة والحنّاء. وهي شريط من الحرير، أو الصوف، مرصّع بالقطع الذهبيّة. وتعد عصابة غمراسن أجمل نموذج لعصابة الحلية. وهي شريط من الصوف الليّن، يعقد إلى الخلف، ومرصّع من الأمام على مستوى الجبين بحبّات مرجان، وبخرزات ملوّنة من الزجاج، ومجموعة من القطع الفضيّة المذهبة المتدلّية منها سلاسل في آخر كل واحدة خُمسة مثبتة بحبة مرجان. ولهذه الأشكال والأحجار طابع وقائي، درءًا للعين وللحسد.

**عصابة فرق**: من أهمّ قطع تزيين الرأس في لباس الأعراس بمناطق الساحل التونسي. وهي شريط طويل ورقيق من الحرير، لا يتجاوز عرضه ٥ سم. وحتى يكون الجزء الأوسط متينًا، فإنّه يحشى بورق مقوى. ويرصّع هذا الجزء الصلب من الشريط بحبّات من الجوهر رفيع الجودة، ويزين بالتطريز وبقطع من الذهب أو الفضّة المذهبة في شكل زهرات. وهناك عصائب شبيهة بعصابة فرق في كلّ من الحمامات، وتسمى «التونزة»، وفي صفاقس، وهي تمثل نموذجًا متميزًا.

عصابة الحلية

عصابة فرق

**عصابة كشف**: تتميز بهذه العصابة مدينة المهديّة، وهي تشبه العصابة فرق من حيث الشكل. وتتكوّن من الحرير خمري اللون المزركش بخيوط من الذهب.

**عصابة قصر هلال**: هذه العصابة أقلّ ارتفاعًا من العصابة كشف. وتصنع من اللبد الأحمر والبنفسجي، ويوشّى وسطها بالتطريز، وبكريّات من خيوط الحرير، وبزخرفة من القياطين المذهبة؛ مثبتة في الجهة اليمنى، وتشبه زخرفة الطاقيّة لمدينة تونس.

## حلـــي الـــرأس

من لوازم زينة الرأس الأخرى الحلي. وهي تصاحب لباس الرأس، بل تكمّله. وتعكس الحلي شخصية المرأة، وتمثّل وثيقة معبرة عن مفاهيم الإنسان الجمالية، وذوقه الفني، ومكانته الاقتصادية والاجتماعية. والمرأة التونسيّة تنتقي أنواعًا كثيرة ومختلفة من الحلي لتزين جسدها، بل لا تترك جزءًا منه إلاّ وزينته، مبتدئة بالرأس، فالرقبة، فالصدر، فالخصر، فاليدين والذراعين، وأخيرًا القدمين. وتختلف أنواع الحلي باختلاف المناطق، وباختلاف استعمالاتها. وبينما تكون أغلب حلي المناطق الحضرية من الذهب والأحجار الكريمة، يكون جلّ حلي الأرياف والمناطق القروية من الفضّة والأحجار نصف الكريمة، ومن الأصداف.

عصابة كشف

عصابة قصر هلال

وشوش

تتميز الحلي ببراعة تركيبها وتعدّد أنواعها. فللجبين وحده مجموعة كبيرة من الحلي قد تفوق الحصر، وتتنوّع حسب منطقة صاحبتها، والمناسبة التي تلبس فيها، ومكانة صاحبتها الاجتماعية، وفئتها العمرية. وكذلك شأن حلي الصدغين والأذنين.

## حلي الجبين

**الخيالي**: عقد من الذهب المرصّع بالأحجار الكريمة، ويستعمل كحلية للجبين في تونس العاصمة.

**وشوش**: حلية للجبين في شكل عقد مكوّن من قطع فضية مذهّبة، تلبس في جربة، في الأفراح.

**القصة أو الجبين**: حلية مكوّنة من صفائح فضية، تلبس في منطقة الشمال الغربي.

## حلي الصدغين

**الدلايات**: وهما قطعتان من الحلي متطابقتان، تلبسان على جانبي الوجه، وتثبتان على العصابة بخطاف، أو تجمعان بخيط سميك من القطن أو الصوف، يوضع فوق الرأس.

**قنادل** (ج. قنديلة): حلي صدغية تلبس عادة أزواجًا في جربة. طول القنديلة نحو ٢٢ سم، ووزنها ١٦٨ جرامًا. شكلها يذكرنا بقناديل المساجد. مصنوعة من الفضّة المطلية بالمينا. ترن هذه القنادل مع كل حركة من حركات الرأس، ويبدو أنّ ما تحدثه الحلي من رنين مستحب في التقاليد التونسية.

الدلايات

وليست القنادل الحلي الوحيدة التي لها رنين، فجميع الحلي المكوّنة من سلاسل ذات قطع فضية، تحدث نغمة مع كل حركة من حركات المرأة التي تتقلّدها في المناسبات والأفراح. ويُقال إنّ الغرض من ذلك الرنين طرد الشياطين. وقد قلّ استعمال القنادل اليوم، بل لعلّه انعدم.

**زوينة**: حلي صدغية تلبس أيضًا في جربة، وتتكوّن من صفائح من الذهب أو النحاس المطلي بالمينا. وكانت العائلات الميسورة في جزيرة جربة قديمًا تربط صفائح الزوينة بأحجار من البلور وبدقيق الدّر المنظوم في صفوف عديدة متوازية. وكانت الأسر التي دون ذلك ثراء تقتصر على سلسلة بسيطة من الفضّة.

زوينـــة

**التيـقـــــار**: كثير الانتشار، ويتكون من عنصر نصف دائري من الذهب أو من الفضّة المقولبة والمخرّمة. ويضم في قاعدته سلاسل مكوّنة من خمس أو ست حلق مستديرة ومنبسطة، تنتهي كل واحدة منها بحلية واقية. وتظلّ مراسم الزواج المناسبة البارزة التي تلبس فيها الحاضرات والعروس هذا المصوغ.

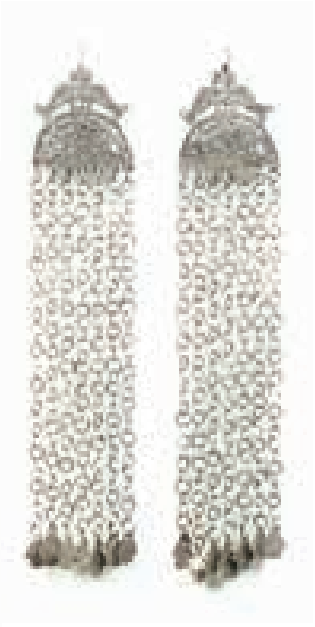

التيـقـــــار

**دلايـــل**: حلي صدغية تلبسها نساء المنطقة الواقعة بين مدنين وتطاوين. وتتميّز حلي هذه المنطقة عن سائر الحلي التونسية بأحجامها الكبيرة ووزنها الثقيل، وبتأثير الثقافة الصحراوية فيها، والذي يظهر في استعمال الجلد في تركيبتها. وتصنع الدلايل من حلق ذهبيّة، ومن فروع المرجان وحبات اللؤلؤ مختلفة الألوان، ومن الأصداف المثبتة على أشرطة رقيقة من الجلد. وهي من الحلي التي يهديها الأب لابنته بمناسبة زفافها[٢].

دلايـــل

(٢) وما زال ياهير كوهين الصائغ اليهودي بسوق الصوف بقرماسة يصنع حلي المنطقة في مدينة تونس. وما زالت الدلايل التي تحلي الصدغين والشعر عادة دارجة، ولا يخلو منها جهاز العرائس.

**شنطبــة**: حلية ضخمة تتكوّن من قطعتين فضيتين زخرفتا بخيط الفضّة وفصوص البلور. الأولى مثلّثة الشكل والثانية مستطيلة، وتربط بينهما سلاسل فضية. وتتزيّن بها نساء منطقتي مدنين وتطاوين بتثبيتهما بغطاء الرأس، فتتدلّيان حتى الصدر.

شنطبــة

**سفالــة** (ج. سفلي): حلي تصنعها النساء ليزيّنَّ بها رءوسهن. وتتكون من قطع أسطوانية مخرّمة، وأخرى كروية الشكل، محلاة بالمينا، ترصّف مع حبات اللؤلؤ بالخيط والإبرة. ويبدو أنّ استعمالها في المهديّة ظهر منذ أواخر القرن التاسع عشر.

سفالــة

**تكليلــة**: تصنع التكليلة وتستعمل في مدينة صفاقس، وهي مقتبسة من حلي طرابلس حيث كانت شائعة الاستعمال لدى المرأة الطرابلسيّة في القرن التاسع عشر. وتتكون هذه الحلي من جزأين متماثلين، كلّ جزء مكون من أسلاك فضيّة، تربط بين صفائح من الفضّة مستديرة الشكل، ومرصعة بحبّات الجمان والجوهر، وتثبّت على حافتها خمس سلاسل من الفضّة، تنتهي بقطع نقديّة وخمسات (خُمسة) من الفضّة المذهّبة. وتلبس العروس التكليلة من جهة الصدغين بحيث يتدلى جزاَها على الصدر.

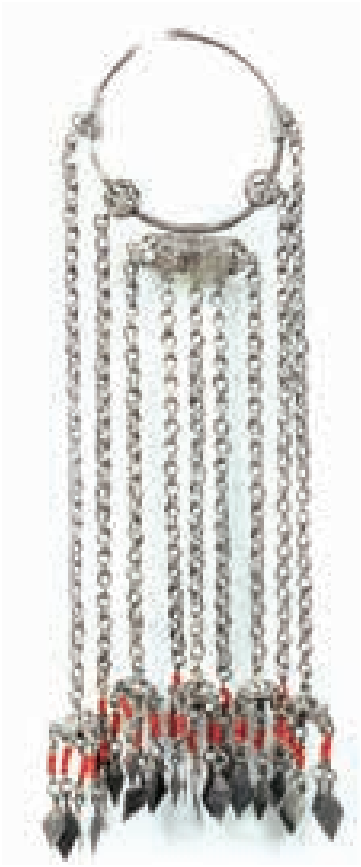

تكليلــة

## حلي الأذنين

**البدلة**: قرط في شكل دائرة نصفها قضيب يكمل الحلقة، ونصفها الآخر على سطحه زخارف وأسلاك متشابكة. تلبس بقرى الشمال الغربي من البلاد التونسية. أما في الجنوب، وخاصة في قابس، يُلبس قرط مشابه لهذا الصنف لكنّه أكبر حجمًا، ويسمى «التكليلة». وتصنع البدلة من الذهب أو الفضّة المذهبة وتتدلى منها سلاسل، مثبّت بطرفها أشكال تحفظ من الأذى (خمسة، حوتة)، وهي معروفة بشمال إفريقيا منذ القرون الوسطى.

البدلة

البدلة

**خرس**: يو جد أطرف أنواع هذا الخرس بجزيرة جربة. ويتميّز بضخامة رأسه الذي يكون بشكل رأس الأفعى. وهو مشبّك ومحلّى بفصوص من البلور الملوّن وحبات اللؤلؤ. وغالبًا ما لا تكتفي المرأة بلبس قرط واحد، بل تتزين بعدة أنواع من الأقراط، تثبّت على رأسها بواسطة مشبك أو بخيوط الصوف.

خرس

خرس

**مناقش**: وهي أقدم أنواع الأقراط المعروفة بتونس العاصمة. ولعلها وردت من تركيا. وكانت نساء مدينة تونس يتحلين بها إلى أوائل القرن العشرين، ولا تزال رائجة بالحمامات والمهديّة والمكنين.

مناقش

الكوفيـــات

الكوفية ذات الكمّ المستدير

## الكوفيـــات (القوفيات)

تعدّ الكوفيات من أجمل وأطرف وأفخم القطع المستعملة لتغطية الرأس وتجميله عند الحضريات. وهي متعدّدة الأنواع والأشكال. وتتزيّن المرأة بالكوفيّة الفاخرة والثمينة في المناسبات، في حين تكتفي بلبس كوفية عادية في سائر الأيام.

والكوفيات ثلاثة أنواع، يتكوّن جميعها من جزأين: كمّ (قاع) مستدير الشكل صلب المقدمة (جبين)، ومن قفا (ذيل) حريري مطرّز مثبّت في الكمّ، ومنساب على الظهر بحيث يغطي الشعر. وتتميّز الكوفيات الواحدة عن الأخرى بشكل كمّها.

**كوفية تونس العاصمة**: وهي مخروطية الشكل، وتسمى «الدوكة»[٣] وهي ذات شكل أسطواني مخروط، وتعد أفخر نماذج الكوفيات، التي كانت مستعملة في تونس في القرن التاسع عشر. ويبلغ ارتفاعها نحو ٢٢ سم. وتفصل من قطعة واحدة متعدّدة السمك لضمان صلابتها. أمّا القماش الخارجي والذي يغطي كلّ الكمّ، فهو من المُخمل الأسود المطرز. واختص في تطريزه سرّاجو العاصمة بالعدس والكنتيل وأشكال تزويقية مذهبة. ولم يتجاوز استعمال هذه الكوفية حدود مدينة تونس، ولذا لقّبت أيضًا بالكوفية التونسية.

**الكوفية ذات الكمّ المستدير**: يتميز هذا النوع بكمّ مستدير ومنخفض، مخيط من عدة قطع من القماش تكسو الرأس تمامًا. والجزء الأمامي من هذه الكوفية ملاصق للجبين، ومطرّز بخيط الحرير الأسود، ويدعى «العمية» أو «طريزة كحلة». تختلف تقنية الطريزة الكحلة عن باقي نماذج الطريزة، فهي عبارة عن شريط زخرفي مصنوع يدويًّا أو آليًّا من الحرير الأسود، ويستعمل في كل الجهات كحافة تمتّن واجهة الكوفية.

وهذا النوع من الكوفيات موجود بصفاقس وجربة. والاختلاف الوحيد بينها وبين كوفية المهديّة يتمثّل في سمك الكمّ؛ فسمكه

---

(٣) أصل الكوفية ومجالها: تشترك أنواع الدوكة في البلاد التونسية من حيث مقاساتها وصلابتها وشكلها، الذي يشبه التاج مع أنماط زينة الرأس في المشرق، في سوريا وفلسطين ولبنان. ويرى البعض أنّ الشكل المخروطي من أصول فارسية، وانتشر في المشرق عن طريق إسطنبول؛ ثمّ صار سائدًا في كامل المنطقة المتوسطية الخاضعة للتأثير العثماني.

وبالرغم من أن ليون الإفريقي لم يذكر هذا النوع من الكوفيات لمّا زار تونس في أواخر العهد الحفصي، فإنّه وصف خلال رحلته إلى القاهرة نساء يلبسن كوفيات مرتفعة ورفيعة (نحو ٢٢ سم) في شكل خرطومي أو هرميّ. ويفيد بعضهم أنّ مصطلح «كوفية» متداول في مناطق عديدة. ففي مكّة تطلق الكوفية على غطاء للرأس ذي شكل أسطواني، يلبسه الرجال في بداية القرن التاسع عشر، ويبلغ ارتفاعه ١٨ سم تقريبًا؛ وهو مطرز بالكامل بخيوط الحرير الملونة. وهناك من يذهب إلى القول إنّ الكوفية جاءت من مدينة الكوفة بالعراق، شأنها شأن الخط الكوفي الذي انتشر منها في مختلف بقاع العالم الإسلامي.

ومهما كان الأمر، فالتأكّد منه أنّ الكوفية التونسية مضت بشهرة واسعة نتيجة جمال زخارفها وتزويقها، والدقّة الفائقة في صنعها. إن التطريزات الدقيقة بخيوط الحرير والفضّة التي تحملها الكوفية على أرضية من الحرير أو الساتان أو المُخمل، لا يمكن أن تعبّر إلا عن واقع مترف وثري وهو الوسط الأرستقراطي. فهذه المظاهر اللباسيّة المترفة تبيّن الرغبة في الظهور والتميّز الاجتماعي؛ وكأنّ لباس الرأس ضرب من الجواهر بوصفها علامات رمزية إضافية للجاه والمكانة.

سمك قطعة قماش واحدة من الحرير المحلي. ومثل هذه الكوفية كانت تلبسها يوميًّا نساء رأس جبل وقلعة الأندلس في أواخر القرن التاسع عشر، وكانت تعرف بـ«الكوفية الظريفة».

**ونوع ثالث** بين الكوفية «الدوكة»[٤] المخروطية والكوفية المستديرة، تستعملها نساء مدن الساحل والوطن القبلي وبنزرت. وتتميز بجزئها الأمامي، الجبين، المكوّن من تطريز أسود محصور بتطريز بخيط الفضّة المذهبة، لا يتجاوز ارتفاعه ٤ أو ٥ سم. وضمن هذا النوع تندرج كوفية رفراف، ونابل، والحمامات، وأنواع أخرى تلبس في المكنين والمنستير.

## أغطية الوجـــــه

من أجزاء لباس الرأس قطع من النسيج، تغطي الوجه، وتختلف أشكالها وتسميتها من موطن إلى آخر. وهي تشمل القطع التالية:

- **عصـــــابة الوجه**

العصابة مرادفها القناع أو اللثام في الشرق، وهي قطعة قماش سوداء اللون، من الموسلين أو نسيج الكتان أو الصوف الرقيق الشفاف، بحيث تستطيع العين أن ترى من خلاله. تغطي به المرأة وجهها، ثمّ تلتحف بالسفساري أو الحايك عند خروجها من بيتها.

- **الخـــــامة**

إنّ الغطاء الرئيسي للوجه الذي كانت ترتديه النساء في تونس هو «الخامة». والخامة قطعة من القماش أسود اللون، تغطي المرأة بها وجهها من أعلى الأنف إلى أسفل الذقن، وتعقدها إلى الخلف. ويقول عنها الطاهر الخميري: «وكانوا يعتزون بلبسها اعتزازهم بأرفع أنواع الزينة. ويلاحظ ذلك في المثل: حط الخبز تحت الرخامة، يخرج بالتاج والخامة». وتلبس الخامة مع السفساري، وهي مرادف للبرقع في الشرق، غير أنّ البرقع يكون معلّقًا من الجانبين بعطرية الرأس. أمّا أرستقراطيات تونس الحاضرة، فقد تميزن بلبسهن غطاء وجه غير مألوف، ويسمّى العجار.

- **عجار مدينة تونـس**

لم تكن نساء مدينة تونس قديمًا حتى العقود الأولى من القرن العشرين، يلتحفن بالسفساري الحريري الذي تخلّين عنه اليوم تقريبًا، متى رغبن في الخروج إلى الشارع؛ إنّما كنّ يلتحفن بقطعة كبيرة من الصوف الأبيض، منسوجة نسجًا دقيقًا، ويحجبن وجوههن بـ«العجار».

والعجار لحاف يحوكه نساجو الحرير (حرايرية تونس)، طوله ٢,٥٠م، وعرضه ٦٠ سم، تضعه المرأة على رأسها، وتشدّ طرفيه بيديها عند مستوى الكتفين، على نحو يكون الجزء الأوسط منه مقابلًا للوجه ويستره كليًّا. وكانت حياكته لطيفة فلا يعطّل الرؤية. ولم تكن تعتَجر سوى نساء مدينة تونس.

(٤) يطلق مصطلح الدوكة على الكوفية الأكثر ارتفاعًا (١٨-٢٣ سم)، وهي مخصّصة للمرأة الشّابّة، في حين تلبس المرأة المسنة والفتاة نموذجًا آخر أقلّ ارتفاعًا وتزيينًا، يسمى «التقعيدة». وتصنع التقعيدة من الكتان أو الحرير، وتطرّز بها موتيفات نباتيّة خفيفة بخيوط الحرير الملوّنة.

عجار مدينة تونس

عجار مدينة تونس

وكانت أقدم المعاجر (ج. مِعْجَر/ عجار) مصنوعة من الحرير الأحمر والأسود المحلّى بزخارف صفراء ذهبية اللون. وأقربها إلينا عهدًا قد استعاضوا فيه بالأزرق عن الأصفر، إلاّ أنّه تغيير لم يحالفه التوفيق دومًا. وتكون حواشي العجار أحيانًا موشاة برسوم القرنفل والسرو. وتدلّ هذه الرسوم على إدخال نماذج من الزخرفة العثمانية في بعض المنسوجات التونسيّة وملابس نساء العاصمة. ومما لا شكّ فيه أنّ التصاميم الزخرفية التونسية هي حصيلة الزخارف التي عرفتها الثقافات المتعاقبة على أرض تونس، والتي تعكس امتزاج الفن المغربي العريق بالفنون الزخرفيّة المشرقية، والأندلسية، والتركية الأناضولية.

## أغطية الرأس

إنّ غطاء الرأس، سواء أكان لستر الجسم ومفاتنه أم للتجمّل أحيانًا، مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالظروف والمناسبات التي يستعمل فيها. فمن أغطية الرأس المخصّصة للظّهور اليومي، البخنوق والمنديل والمشطيّة. وهي منسوجات مستطيلة الشّكل من الصّوف الأسود، أو الأحمر، أو البنّي، أو الأبيض؛ مزخرفة أو مسمّطة، تستعملها المرأة من الجنوب التّونسي ومن قرى ومدن السّاحل عند الخروج. وهي بمنزلة السّفاري في تونس العاصمة وبعض المدن الساحليّة الأخرى، ومنها ما هو مخصّص للمناسبات. ويعد كأحد عناصر تزيين الرّأس كالعجار والتّعجيرة والطّرف.

تعد الأغطية الصّوفيّة، سواء المموّهة بالحرير، أو المسمّطة، أو الموشّاة بخيوط القطن، من أهمّ مكوّنات جهاز العروس، وعنصرًا من عناصر التّراث العائلي، ومبعثًا للتّفاخر والتّباهي، ورمز ثراء ويسر، يورث تمامًا مثل العقارات والأموال الثّابتة.

والمعروف عن أهل تونس أنّه تربطهم بالصوف علاقة تكاد تكون حميميّة. فمنه يصنعون لباسهم، وغطاءهم، وفراشهم، ومسكنهم أحيانًا. وتاريخ تونس شاهد على عراقة هذه الصّناعة التّقليديّة وتأصّلها. وليس أدلّ على ذلك مما ورد في المصادر التّاريخيّة اليونانيّة عن جمال منسوجات قرطاج. كذلك وردت منسوجات كبرى مدن إفريقيّة، القيروان، ضمن الخراج الذي كان أمراء بني الأغلب يؤدّونه إلى العبّاسيّين ببغداد. وكان للبربر قبل الفتح الإسلامي وبعده تقاليد عريقة في نسج الأصواف؛ وقد ذكر العلامة ابن خلدون أنّ معظم لباسهم وأثاثهم كان من الصّوف. ومع زحف أعراب بني هلال وسليم بقطعانهم على إفريقيّة من مصر، وطّدوا وعزّزوا هذه التّقاليد لتتوارثها من بعدهم أجيال أخرى. وجلّ هذه المنسوجات، منمّق بزخارف ألوانها فاتحة وبارزة على أرضيّة داكنة. وتتكوّن هذه الزّخارف في غالبيّتها من تشكيلات من المفردات الهندسيّة المتداخلة من مثلّثات، ومعيّنات، وعلامات معرّجة منظّمة تتبع شكل الأشرطة المنسوجة. وهذه الزّخارف تكاد تكون هي نفسها موجودة على قطع الفخّار الرّيفي، والمفروشات البدويّة، والوشام الذي يجمّل وجوه النّساء.

**بخنوق مطماطة**: البخنوق شال من الصوف، تلتحف به النساء عندما يخرجن إلى الشارع. وهو شبيه بالمشطيّة لكنّه يختلف عنها بمقاسه (٢م/ ١م)، وبأسلوب الزركشة فيه. فزخرفة البخنوق أقلّ اكتظاظًا من زخرفة المشطيّة. وهو متداول في الجنوب التونسي، حيث تتوافر نماذج منه لدى أهالي منطقة قفصة، وقرى جبل مطماطة، وقرى منطقة مدنين وتطاوين.

وللبخانيق ألوان مختلفة وزخارف متباينة؛ فالبيضاء مخصّصة للفتيات يتزيّن بها أيام الاحتفالات؛ والحمراء للشابات من النساء؛ والسوداء تعتجر بها النساء المسنّات.

تتكوّن أرضية البخنوق من الصوف، في حين تنسج المنمنمات من القطن. تُزركش جوانب البخنوق الأربعة، وأحيانًا يزيّن وسطه، وأحيانًا يبقى مصمتًا. فبخنوق «توجان» يشتمل على زخارف في الوسط، وأخرى على حوافه. وأكثر الزخارف اطّرادًا فيه مثلث

بخانيق

مجهز عند قاعدته بخطوط خمسة متوازية، ينتهي كل منها بمثلث رفيع. ويطلق على هذا الزخرف الذي له مثيله في بعض حلي جربة اسم «الشيشباقو»، أي تلك العلبة الفضيّة المطلية بالمينا التي تثبّتها المرأة الجربيّة على ضفيرتيها، لذلك اشتهر هذا البخنوق بـ«البخنوق الشيشباقو».

وقديمًا كانت نساء مطماطة ينسجن قطعة كبيرة من الصوف مستطيلة تشبه البخنوق، يلتحفن بها أيام الأعياد والأفراح. وإذ تخلين عن ذلك الثوب الفاخر، فقد استبدلن به المنسوجات القطنية أو تلك المصنوعة من الحرير الاصطناعي، التي تنتجها مصانع النسيج بقصر هلال وتونس.

**منديل الساحل**: أمّا في قرى السّاحل، فيُستعمل غطاء للرّأس مستطيل الشّكل يسمّى «المنديل». ويتميّز بزخرف طريف، يتكوّن من خطوط متوازية وأهداب من الصّوف والقطن، تحلّي طرفي القطعة. وتكون هذه الأهداب عادة بيضاء وسوداء على أرضيّة بيضاء بالنّسبة إلى المنديل المخصّص للفتاة، أو سوداء وحمراء على أرضيّة حمراء بالنّسبة إلى المنديل المخصّص للمرأة المتزوّجة، أو بنفسجيّة على أرضيّة سوداء بالنّسبة إلى المنديل المخصّص للمرأة المسنة. ومن الشائع أنّ «منديل بنّان» أجمل المناديل، ويتأتّى جماله من زخارفه القطنيّة المسمّاة «وشام»، وأطرافه المحفوفة بأهداب طويلة ومضفورة.

مناديل الساحل

**مشطيّة جبنيانة**: لقد دأبت النساء في جبنيانة على تنظيم أوقاتهن بين الأشغال المنزلية والأعمال الفلاحية والحياكة. وقد اشتهرن كحائكات ماهرات، شأنهن في ذلك شأن عديد من نساء القرى التونسية. ولأكسيتهن ولحافهن زخارف رائعة، وأصواف منتقاة، وألوان متناسقة. ورغم أنّ المشطيّة لا يدخل فيها من الألوان سوى ثلاثة هي الأحمر والأبيض والأسود، فهي تعد من القطع المتميّزة جدًّا. وكانت النساء يستعملن المشطيّات الحمراء، التي مقاساتها ٢,٤٠م/ ١,٢٥م تقريبًا، لحافًا للخروج. ولكل فتاة مشطيّة واحدة على الأقل ضمن جهاز عرسها.

وتغطي مساحة هذه المشطيّة زخارف هندسية الشكل، تؤلف بين المثلث، والمعين، والخط، والنقطة، والخطّ المستقيم والمنكسر. وهذه السمة جعلت مشطيّة جبنيانة تختلف عن بخنوق مطماطة مثلًا، رغم أنّ كُلًّا منهما محلّى بزخارف هندسية. وتنتظم زخارف المشطيّات في صورة خطوط متراصّة عند الحواشي ومتباعدة في الوسط، حيث يوجد شريطان أحمران تقطعهما خطوط مزخرفة.

في جبنيانة تلبس المرأة مباشرة على الشعر «الشنبير» (منديل من الصوف)، وفوقه المحرمة أو الخياطي (منديل من الحرير)، ثم تلتف بالمشطيّة التي تغطي كامل جسدها من الرأس إلى الركبتين. وتلبس أيضًا غطاء آخر مشابهًا للمشطيّة، ولكنه أقلّ زخرفة، ويعرف بالعجار. وتنسج المشطيّة على نول عمودي ساري الاستعمال إلى اليوم.

**مشطية الجـم**: وهي شال (القيـاس ٢م/ ١,١٠م، الوزن ٢ كم) تلبسه المرأة في اليوم السابع من زفافها، مصبوغة باللون الأحمر، أو أعادت صاحبتها صبغها لمّا تقدمت بها السنّ. فاللون الأحمر في معظم الأوقات لون خاص بالنساء الشابات؛ أمّا من هن أكبر سنًّا، فمن نصيبهن ألوان أشدّ قتامة، كالأزرق الضارب إلى السواد، والبني الضارب إلى الحمرة، والأسود خفيف السواد.

وتظهر براعة الحائكة في تعدد التوليفات الزخرفية وتناسقها إلا أن المشطيّات لم تعد تحاك إلا نادرًا وعُوّضت تدريجيًّا بـ«المنديل». وهو غطاء من الصوف الأحمر مزخرف الأطراف، أو بالسفساري المنسوب إلى المدن، أو بفوطة من القطن، أو بأي منسوج صناعي آخر.

وفي الجم تلبس المرأة أولًا «الحزاق» الذي تلفّ به شعرها، وتضع فوقه البشكير، ثم تتغطّى بالمشطيّة. والحزاق هو منديل من القماش المستورد أحمر اللون؛ أما البشكير، فهو منديل تنشيف، يلبس في الجم كغطاء تحت المشطيّة. ويبدو أنّ انتماء سكان كلّ من الجم وجبنيانة إلى قبيلة «المثاليث» قد جعلهم يشتركون في بعض العادات والحرف والمهارات اليدوية.

**عجار قصر هلال**: نسيج من الملف الأسود مطرز بخيوط الحرير متعددة الألوان، تلتحفه المرأة في المناسبات. يخضع السجل الزخرفي للعجار إلى الصنف النباتي والهندسي، وهو مجسد بعناية بتقنية التنبيت، طرفه السفلي المحفوف بأهداب طويلة يزيده رونقًا.

**تعجيرة شنني تطاوين**: إنّ نساء شنني وتطاوين خبيرات ماهرات في مجال الحياكة. فهن ينسجن لباسهن الخاص كـ«الحولي»، و«البخنوق»، و«التعجيرة»، شأنهنّ في ذلك شأن

عجار قصر هلال

جاراتهن في سائر القرى والمرتفعات المجاورة. وتُعدّ تلك الأغطية آية في الجمال؛ فهي دقيقة الحياكة، وجيدة الصباغة.

وبينما يكون البخنوق أبيض اللون أو أحمر أو أسود، وذلك حسب سنّ صاحبته، تكون التعجيرة حمراء أو حمراء ضاربة إلى البنّي. وتحتل الزخارف المنمنمة جوانبها الثلاثة. وتحاك الرسوم من القطن الأبيض على أرضية من الصوف حمراء أو سوداء.

وتطرز التعجيرة غالبًا على الجانب الذي تضعه المرأة على رأسها. وتكثر التطاريز أو تقلّ بحسب القرى، فيقتصر بعضها أحيانًا على ضفيرة من الحرير أو القطن أو الصوف (تسمى «بشمار»)، تثبّت على حافتها، أو شرابات كبيرة تحدّد موضع الرأس منها. وفي بعض القرى يقوم حرفيون من الرجال بصنع هذه التطاريز ذات الألوان الساطعة. وتغطي النساء رءوسهن بالتعجيرة أو البخنوق، كلّما خرجن من بيوتهنّ.

**طرف الرأس**: هو شال (١,٤٥م / ٠,٧٨م) تلبسه نساء جزر قرقنة أيّام الأفراح، ويفصّل من المنسوجات الصوفيّة التقليدية. وكن يغطين به رءوسهنّ، ويلتحفن بآخر يضعنه حول الكتف اليسرى، وشبيه بالأوّل يسمى «طرف الكتف» (شال الكتف).

أمّا الأقمشة التي يحتاج إليها في خياطة الطرف؛ فكانت تصنع بصفاقس. ويُعدّ طرف الرأس وطرف الكتف أفخر قطعتين من اللباس تملكهما المرأة القرقنيّة. وكلاهما من الصّوف الأحمر أو الأسود (اللون حسب سنّ مستعملته)، مطرّز بزخارف تتكوّن من خطوط متقاطعة (ما يسمّى أيضًا بغرزة قرقنة)، تتّخذ من خيوط

شال طرف الرأس

الصوف الأخضر والبرتقالي والأسود المطوّق بخيوط القطن الأبيض. وطرف الرأس أصغر من ط رف الكتف؛ إذ إنّ طرف الكتف يغطّي كامل الجسم من الصدر إلى الكعبين.

ومن الأغطية الأخرى التي تلبسها البدويات في الجنوب التونسي، والتي ذكرها محمد المرزوقي:

**الطربوشة** أو **الخرواطة**: وهي قطعة من القماش الأبيض، تغطي الرأس، ويمتد طرفها إلى أسفل الظهر، تُشدّ بسير تحت الفكين، وتلبسها الفتيات قبل الزواج.

**الوقّاية**: كالطربوشة يُغطى بها الرأس، ولكنّها أقلّ طولًا وأكبر عرضًا، تصنع من نسيج صوفي أحمر، وتلبسها المرأة الثيب.

تعجيرة شنني تطاوين

**الشنبير** أو **الشنبيل**: لحاف يوضع فوق الطربوشة، ويتكوّن من نسيج الصوف الأسود، يطرز طرفه الذي يوضع على الرأس، ويصل التطريز إلى جانبي الوجه.

**المقرونة**: قطعة من القماش الأحمر المزركش، تُلبس كغطاء للرأس في الصيف. وسميت مقرونة؛ لأنّها تتكوّن من قطعتين متّصلتين.

**العصابة**: قطعة من النسيج الصوفي الأسود، تعصب به المرأة الثيب رأسها.

إن حركة التاريخ وتجاذبات الجغرافيا التي شكلت مع الوقت الواقع التونسي، أثرت بدون شك في تغيير دورة الحياة في عديد من الأحيان، وأسهمت في إنشاء أسلوب متجدد للتعايش مع

العصابة

المجتمعات الأخرى، كما بنَت من خلال احتكاك الشعوب بعضها ببعض جسرًا للتواصل الإنساني والتثاقف الفكري، أسهم في ترسيخ حضارة متفاعلة مع الأمم المتعاقبة؛ دون الانصهار الكلي والتخلي عن موروثها الثقافي. إن المتأمل في هذا الموروث الملبسي الكبير الخاص بالرأس، يلمس ما خزنته المحطات التاريخية المتعددة من ثقافات، ومن ثم قدرة التونسية على امتلاك فعل التخزين والاستيعاب، ومدى تمكنها من تحويلها إلى فعل الاقتباس، والاستلهام؛ وهو ما سهل عليها صناعة الفعل الذاتي المعروف علميًّا «بفعل التأثير».

لقد كان لفعل الاقتباس دور هام وفعال في بلورة معالم الشخصية الوطنية، ليس من خلال التفاعل الإيجابي مع حضارات عالمية كبرى فقط؛ وإنما من خلال تطور فعل الاقتباس لدى التونسية وتجذّره فيها؛ لتتبوأ مكان الفاعلة المبتكرة الخلاقة لا المجترة المقلدة. وبهذه الرؤية تعزز دورها التشاركي الحيوي في بناء الثقافة الجماعية، وتأكيد حقيقة الاختلاف والتمايز الموجودة في الإبداع الفني التونسي.

إن الإبداع الثقافي المتعدد والمتنوع الذي حاولت أن أبرزه في هذا العمل من خلال تناولي لمجموعة ألبسة الرأس، يعكس مزيجًا حضاريًّا لا متناهي التناسق والتكامل من حيث الألوان والمواد والتقنيات، أرخ أقدم الحضارات الإنسانية في التاريخ العالمي، سواء الوافدة علينا المتمثلة في مزيج الفينيقيين، والرومان، والإغريق، والعرب، والفرس، والترك، أو المحلية البربرية الإفريقية المتوسطية. لقد تركت المرأة بمشغولاتها اليدوية بصمات لا تمحى عن مهارات تمّ اكتسابها بكل حذق، وترسّخت رسوخًا شديدًا. وبذلك أسهمت التونسيات البدويات والحضريات من الشمال إلى الجنوب، من خلال التفنن في صناعة الأزياء، في نحت حضارة البلاد.

# وقف

بسم الله الرحمن الرحيم وقف وحبس وسبل وابد العبد الفقير الى الله تعالى
حصن المسلمين ملجأ القاصدين ابو سعد سيف الدين ركن بن عبد الله الشافعي الملكي الناصري بعده الله تعالى الفضل العظيم
جميع هذه الربعة الشريفة وعدتها ثلثون جزءا على كافة المسلمين ينتفعون بذلك في القراءة والنقل
والمطالعة والدراسة وشرط الواقف للذكور ان هذه الربعة المذكورة لا تخرج من الذرية المذكورة ولا تعار ولا تخرج الا
للاصلاح وجعل النظر في ذلك لنفسه طول حياته ثم من بعده للذرية الارشد فالارشد وذريته ذرية فاذا انقرض
الذرية ولم يبق منهم احد يكون النظر للشيخ المقيم بالتربة المذكورة يجري الحال في ذلك كذلك ما ابقى الله الارض
ومن عليها وهو خير الوارثين فمن بدل ما شرطه فانما اثمه على الذين يبدلونه
ان الله سميع عليم وقع اجر هذا الواقف على الله عز وجل الذي لا يضيع اجر من احسن عملا وذلك سابع
من شهر جمادى الاخرة سنة ست وستين وسبعمائة